فصل
[هذا فن آخر من القول يجمع التشبيه والتمثيل جميعاً]

اعلم أن معرفة الشيء من طريق الجملة غير معرفته من طريق التفصيل، فنحن وإن كنا لا يشكل علينا الفرق بين التشبيه الغريب وغير الغريب إذا سمعنا بهما، فإن لوضع القوانين وبيان التقسيم في كل شيء وتهيئة العبارة في الفروق فائدة لا ينكرها المميز. ولا يخفى أن ذلك أتم للغرض وأشفى للنفس. والمعنى الجامع في سبب الغرابة أن يكون الشبه المقصود من الشيء مما لا ينزع إليه الخاطر، ولا يقع في الوهم عند بديهة النظر إلى نظيره الذي يشبه به، بل بعد تثبت وتذكر وفكر للنفس في الصور التي تعرفها وتحريك الوهم في استعراض ذلك واستحضار ما غاب منه.

بيان ذلك أنك كما ترى الشمس ويجري في خاطرك استدارتها ونورها تقع في قلبك المرآة المجلوة ويتراءى لك الشبه منها فيها. وكذلك إذا نظرت إلى الوشي منشوراً وتطلبت لحسنه ونقشه واختلاف الأصباغ فيه شبهاً حضرك ذكر الروض ممطوراً مفتراً عن أزهاره، متبسماً عن أنواره، وكذلك إذا نظرت إلى السيف الصقيل عند سله وبريق متنه لم يتباعد عنك أن تذكر انعقاق البرق[1] وإن كان هذا أقل ظهوراً من الأول وعلى هذا القياس. ولكنك تعلم أن خاطرك لا يسرع إلى تشبيه الشمس بالمرآة في كف الأشلّ كقوله:

---

(1) أنعق البرق: تسرب في السحاب، ومن معاني العقيقة ما يبقى في السحاب من شعاعة وبه تشبه السيوف فتسمى عقائق.

* والشمس كالمرآة في كف الأشل *

هذا الإسراع ولا قريباً منه ولا إلى تشبيه البرق بأصبع السارق كقول كشاجم:

أرِقتَ أم نمت لضوء بارق مؤتلق مثل فؤاد العاشق
كأنه أصبع كف السارق

وكقول ابن بابَك:

ونضنض في حصني سحائل بارق له جذوة من زبرج اللاذ لامعه
تعوَّج في أعلى السحاب كأنها بنان يد من كلة اللاذ ضارعه[1]

ولا إلى تشبيه البرق في انبساطه وانقباضه، والتماعه وائتلاقه، بانفتاح المصحف وانطباقه، فيما مضى من قول ابن المعتز:

وكأن البرق مصحف قار فانطباقاً مرة وانفتاحا

ولا إلى تشبيه سطور الكتاب بأغصان الشوك في قوله:

بلفظ يأخذ الحرف المحلى كأن سطوره أغصان شوك[2]

ولا إلى تشبيه الشقيق بأعلام ياقوت على رماح زبرجد كقول الصنوبري:

وكأن محمر الشقيـ ق إذا تصوب أو تصعد
أعلام ياقوت نُشر ن على رماح من زبرجد

(1) نضنض: تحرك ويستعمل متعدياً، والسحائل جمع سحيل وهو الحبل على قوة واحدة (أي طاق واحد) شبه به خيوط ضوء البرق الرقيقة. والزبرج: السحاب الرقيق فيه حمرة واللاذ جمع لاذة وهي ثوب من حرير أحمر. والكلة بالكسر: الحجلة التي تسمى الآن في بلادنا (الناموسية) والستر الرقيق.

(2) كأنه يريد أن اللفظ يأخذ أشكال الحروف المحلاة بحركاتها أي يتشكل فيها (ش) وينبغي أن تتذكر أن الشوك الذي شبه به شكل الحركات على السطور هو ما كان دقيقاً وكثيراً كشوك الثمر الذي يسمى في مصر بالتين الشوكي وفي الشام بالصبير بوزن جميز.

ولا إلى تشبيه النجوم طالعات في السماء، مفترقات مؤتلفات في أديمها، وقد مازجت زرقة لونها بياض نورها بدرٌ منثور على بساط أزرق كقول أبي طالب الرقى:

وكأن أجرام النجوم لوامعاً درر نثرن على بساط أزرق[1]

ولا ما جرى في هذا السبيل، وكان من هذا القبيل، بل تعلم أن الذي سبقك إلى أشباه هذه التشبيهات، لم يسبق إلى مدى قريب بل أحرز غاية لا ينالها غير الجواد، وقرطس في هدف لا يصاب إلا بعد الاحتفال والاجتهاد[2]:

[الإدراك الإجمالي والتفصيلي الذي به التفاضل]

واعلم أنك إن أردت أن تبحث بحثاً ثانياً، حتى تعلم لم وجب أن يكون بعض الشبه على الذُّكر أبداً، وبعضه كالغائب عنه، وبعضه كالبعيد عن الحضرة، لا ينال إلا بعد قطع مسافة إليه، وفضل تعطف[3] بالفكر عليه، فإن ههنا ضربين من العبرة، يجب أن تضبطهما أولاً ثم ترجع في أمر التشبيه؛ فإنك حينئذ تعلم السبب في سرعة بعضه إلى الفكر، وإباء بعض أن يكون له ذلك الإسراع. فإحدى العبرتين أنا نعلم أن الجملة أبداً أسبق إلى النفوس من التفصيل. وأنك تجد الرؤية نفسها لا تصل بالبديهة إلى التفصيل، ولكنك ترى بالنظر الأول، والوصف على الجملة، ثم ترى التفصيل عند إعادة النظر، ولذلك قالوا: النظرة الأولى حمقاء. وقالوا: لم ينعم النظر، ولم يستقص التأمل. وهكذا الحكم في السمع وغيره من الحواس؛ فإنك تتبين من تفاصيل الصوت بأن يعاد عليك، حتى تسمعه

(1) خرجت في صبيحة يوم من أيام الربيع إلى المزارع وجلست على رابية فرأيت القمح يعلو أوراقه الندى على كل ورقة منه نقطة كاللؤلؤ ففكرت فيما يشبه ذلك فخطر لي معاني جعلتها مطلع موشح فقلت وهو من أول نظمي:

أسقيط الطل في نبت الحمى أم لآل فوق بسط السندس
أم نجوم تتراءى في السما أم ثغور زينت باللعس

(2) قرطس: أصاب القرطاس أي الغرض والاحتفال: المبالغة وحسن القيام بالأمور.

(3) التعطف صيغة كثرة من العطف وهو الشفقة والحنو.

مرة ثانية ما لم تتبينه بالسماع الأول. وتدرك من تفصيل طعم الذوق بأن تعيده إلى اللسان ما لم تعرفه في الذوقة الأولى. وبإدراك التفصيل يقع التفاضل بين راء وراء، وسامع وسامع، وهكذا. فأما الجمل فتستوي فيها الأقدام، ثم تعلم أنك في إدراك تفصيل ما تراه وتسمعه أو تذوقه كمن ينتقي الشيء من بين جملة، وكمن يميز الشيء مما قد اختلط به، فإنك حين لا يهمك التفصيل كمن يأخذ الشيء جزافاً وجرفاً[1].

وإذا كانت هذه العبرة ثابتة في المشاهدة، وما يجري مجراها مما تناله الحاسة، فالأمر في القلب كذلك: تجد الجمل أبداً هي التي تسبق إلى الأوهام وتقع في الخاطر أولاً، وتجد التفاصيل مغمورة فيما بينها، وتراها لا تحضر إلا بعد إعمال الروية واستعانة بالتذكر. ويتفاوت الحال في الحاجة إلى الفكر بحسب مكان الوصف ومرتبته من حد الجملة وحد التفصيل، وكلما كان أوغل في التفصيل، كانت الحاجة إلى التوقف والتذكر أكثر، والفقر إلى التأمل والتمهل أشد.

وإذ قد عرفت هذه العبرة، فالاشتراك في الصفة إذا كان من جهة الجملة على الإطلاق، بحيث لا يشوبه شيء من التفصيل نحو أن كلا الشيئين أسود أو أحمر، فهو يقل عن أن يحتاج فيه إلى قياس وتشبيه؛ فإن دخل في التفصيل شيئاً نحو: إن هذا السواد صاف براق، والحمرة رقيقة ناصعة، احتجت بقدر ذلك إلى إدارة الفكر، وذلك مثل تشبيه حمرة الخد، بحمرة التفاح والورد، فإن زاد تفصيله بخصوص تدق العبارة عنه ويتعرّف بفضل تأمل، ازداد الأمر قوة في اقتضاء الفكر، وذلك نحو تشبيه سقط النار بعين الديك في قوله:

* وسقط كعين الديك عاورت صحبتي *[2]

---

(1) الجزاف: بيع الشيء لا يعلم كيله ولا وزنه وهو اسم من جازف مجازفة، والجزاف بالضم خارج عن القياس وهو فارسي تعريب كزاف (مصباح) واشتقوا منه جزف وجازف واجتزف واستعملوه في الحقيقة والمجاز، وثلثوا جيم جزاف، والجرف بالفتح: الكسح أو الذهاب بالشيء كله.

(2) الشطر من قصيدة لغيلان وتمام البيت:

* أباها وهيأنا لموضعها وكراً *

[التشبيه التفصيلي المتوقف على دقة الفكر]

وذلك أن ما في عينه من تفصيل وخصوص، يزيد على كون الحمرة رقيقة ناصعة، والسواد صافياً براقاً، وعلى هذا تجد هذا الحد من المرتبة التي لا يستوي فيها البليد والذكي، والمهمل نفسه والمتيقظ المستعد للفكر والتصور فقوله:

والصحبة اسم جمع صاحب، وعاورتهم: تناوبت معهم وفي رواية «نازعت» والبيت في وصف السقط الذي يكون من الزند. وهو مثلث السين والأشهر منها الكسر، ومن عادتهم عندما يريدون استخراج النار أنهم كانوا يأتون بالعودين فيضعون أحدهما أسفل ويسمونه الأنثى ويفرضون فيه فرضاً ويجرون فيه عوداً آخر يسمونه الأب وأحياناً ينقرون نقراً في العود الأول ويبرمون - أي يديرون - فيه الثاني وهو قائم فإذا طال زمن العمل ولم تخرج النار تناوب العود الذكر وهو الأب جماعة الواحد بعد الآخر يحركه حتى تخرج، والمراد من الوكر: ما تودع فيه النار بعد خروجها كالخشب والفحم ونحوهما ومطلع القصيدة:

لقد جشأت نفسي عشية مشرف ... ويوم لوا حزوي فقلت لها صبراً

وبعد البيت المستشهد به:

مشهرة لم تكن الفحل أمها ... إذا هي لم يمسك بأطرافها قسرا
قد انتتجت من جانب من جنوبها ... عواناً ومن جنب إلى جنبه بكرا
أبوها أخوها والضوى لا يضيره ... وساق أبيها أمها عقرت عقرا

والكلام في وصف السقط يحاجي بذكرها، والأم هي العود الأسفل، والفحل هو العود المسمى بالأب، ولا بد من إمساك طرف العود الأسفل حتى يمكن تحريك الأعلى فيه ثم يقول إنها «انتتجت» أي اكتسبت من بعض الجوانب «عواناً» أي بعد أن عمل فيه قوم سابقون وذلك أن القوم كانوا يستخرجون النار من أسفل شجرة فيأتي غيرهم ويستخرجها من حيث استخرج الأولون فشبه هذا بالمرأة العوان أي في منتصف سنها، ومن بعض الجوانب اقتدحت «بكراً» أي من حيث لم يسبق لأحد اقتداح فهي كالبكر و(أبوها) وهو العود الأعلى (أخوها) لأنهما من شجرة واحدة (والضوى لا يضيره) لأنه كلما رق كان أفضل، والضوى بفتح الضاد والواو: الدقة والهزال وفعله ضوى كرضى (وساق أبيها أمها) يشير بذلك إلى ما يحصل من الاقتداح في ساق الشجرة. ومن هنا يفهم إلغاز ابن دريد في المقصورة وهو:

ومنتج أم أبيه أمه ... لم يتخون جسمه مس الضوى
أفرشته بنت أخيه فانثنى ... عن ولد يورى به ويشتوى

كأن على أنيابها كل سُحرة صياح البوازي من صريف اللوائك[1]

أرفع طبقة من قوله:

كأن صليل المرو حين تشذه صليل زيوف يُنتقدن بعبقرا[2]

لأن التفصيل والخصوص في صوت البازي أبين وأظهر منه في صليل الزيوف، وكما أن قوله يصف الفرس:

وللفؤاد وجيب تحت أبهره لدْمَ الغلام وراء الغيب بالحجر[3]

لا يستوي بتشبيه وقع الحوافر بهزمة الرعد وتشبيه الصوت الذي يكون لغليان القدر بنحو ذلك كقوله:

لها لغط جنح الظلام كأنه عجارف غيث رائح متهزم[4]

لأن هناك من التفصيل الحسن ما تراه. وليس في كون الصوت من جنس

---

(1) تقدم مع تفسيره (ص 77).

(2) البيت لامرىء القيس والمرو: الحجارة البيض الرقاق، وتشذه إشذاذاً: تنحيه، وعبقر: قيل بلدة في اليمن مشهورة بتزييف النقود وقيل: هي قرية للجن ينسبون إليها كل عجيب في الحسن أو القبح.

(3) البيت أنشده الأصمعي لابن مقبل، والأبهر: عرق مستبطن في الصلب والقلب متصل به فإذا انقطع لم تكن معه حياة، وذكر الزمخشري الصلب ولم يذكر القلب، وعن ابن الأثير: هما عرقان في الظهر يقال لهما الأبهران كما يقال في عرق الذراع الأكحلان، قال شيخنا وقيل: هو عرق منشؤه من الرأس ويمتد إلى القدم وله شرايين تتصل بأكثر الأطراف والبدن فالذي في الرأس يسمى النأمة ومنه قوله: أسكت اللّه نأمته أي أماته، ويمتد إلى الحلق فيسمى الوريد وإلى الصدر فيمى الأبهر وإلى الظهر فيسمى الوتين والفؤاد معلق به وإلى الفخذ فيسمى النسا (بالفتح) وإلى الساق فيسمى الصافن اهـ. والوجيب تحرك القلب تحت أبهره، واللدم: الضرب والغيب: ما كان بينك وبينه حجاب يريدان للفؤاد صوتاً يسمعه ولا يراه كما يسمع صوت الحجر الذي يرمي به الصبي ولا يراه وخص الغلام لأن الصبيان كثيراً ما يلعبون برمي الحجارة اهـ لسان العرب.

(4) عجارف المطر والغيث: شدته والمتهزم: للصوت يقال: تهزمت القوس وتهزم الرعد أي صوتاً.

اللغط تفصيل يعتد به، وإنما هو كالزيادة والشدة في الوصف، ومثال ذلك مثال أن يكون جسم أعظم من جسم في أنه لا يتجاوز مرتبة الجمل كبير تجاوز. فإذا رأى الرجل شخصاً قد زاد على المعتاد في العظم والضخامة لم يحتج في تشبيهه بالفيل أو الجبل أو نحو ذلك إلى شيء من الفكر بل يحضره ذلك حضور ما يعرف بالبديهة.

والمقابلات التي تريك الفرق بين الجملة والتفصيل كثيرة. ومن اللطيف في ذلك أن تنظر إلى قوله:

يتابع لا يبتغي غيره بأبيض كالقبس الملتهب(1)

ثم تقابل به قوله:

جمعت ردينياً كأن سنانه سنا لهب لم يتصل بدخان(2)

فإنك ترى بينهما من التفاوت في الفضل ما تراه مع أن المشبه به في الموضعين شيء واحد وهو شعلة النار وما ذاك إلا من جهة أن الثاني قصد إلى تفصيل لطيف ومر الأول على حكم الجمل. ومعلوم أن هذا التفصيل لا يقع في

(1) البيت لعنترة العبسي وهو حماسي، والضمير في يتابع لورد بن حابس، ومفعول يتابع محذوف والضمير في «غيره» لنضلة الأسدي، وكان ورد بن حابس طلب نضلة الأسدي بوتر له. وموضع «لا يبتغي» نصب على الحال، والباء في قوله بأبيض يجوز أن تتعلق بيتابع وأن تتعلق بلا يبتغي، والمعنى: يتابع ورد بن حابس نضلة الأسدي غير مبتغ غيره بسيف أبيض كالنار الملتهبة، ومعنى لا يبتغي غيره أن همته كانت منصرفة إليه دون سواه من الناس أو دون الغنائم والأموال.

(2) يروى: حملت مكان جمعت وهو أظهر قال الجوهري: القناة الردينية والرمح الرديني زعموا أنه منسوب إلى امرأة السمهري وتسمى ردينة وكانا يقومان القنا بخط هجر اهـ وفي كلامهم: خطية ردن، ورماح لدن (لسان) وأقول: سمهر كجعفر وردينة كجهينة والخط بالفتح قال في المصباح: سمي به موضع باليمامة وينسب إليه على لفظه فيقال: رماح خطية والرماح لا تنبت بالخط ولكنه ساحل للسفن التي تحمل القنا إليه وتعمل به، وقال الخليل: إذا جعلت النسبة اسماً لازماً قلت خطية بكسر الخاء ولم تذكر الرماح، وهذا كما قالوا: ثياب قبطية بالكسر فإذا جعلوه اسماً حذفوا الثياب وقالوا قبطية بالضم فرقاً بين الاسم والنسبة اهـ.

obeikandl.com

الوهم في أول وهلة بل لا بد فيه من أن تثبت وتتوقف، وتروي وتنظر في حال كل واحد من الفرع والأصل حتى يقوم حينئذ في نفسك أن في الأصل شيئاً يقدح في حقيقة الشبه ـ وهو الدخان الذي يعلو رأس الشعلة ـ وأنه ليس في رأس السنان ما يشبه ذلك، وأنه إذا كان كذلك كان التحقيق وما يؤدي الشيء كما هو أن تستثني الدخان وتنفي اتصاله باللهب وتقصر التشبيه على مجرد السنا وتصور السنان فيه مقطوعاً عن الدخان.

ولو فرضت أن يقع هذا كله على حد البديهة من غير أن يخطر ببالك ما ذكرت لك قدرت محالاً لا يتصور، كما أنك لو قدرت أن يكون تشبيه الثريا بعنقود ملاحية حين نور، بمنزلة تشبيهها بالنور على الإطلاق أو تفتح نور فقط كما قال:

كأن الثريا في أواخر ليلها تفتح نور[1] أو لجام مفضض

حتى ترى حاجتهما إلى التأمل على مقدار واحد، وحتى لا يحوج أحدهما من الرجوع إلى النفس وبحثها عن الصور التي تعرفها إلا إلى مثل ما يحوج إليه الآخر، أسرفت في المجازفة ونقصت يداً بالصواب والتحقيق[2].

والعبرة الثانية أن مما يقتضي كون الشيء على الذكر، وثبوت صورته في النفس أن يكثر دورانه على العيون، ويدوم تردده في مواقع الأبصار، وأن تدركه الحواس في كل وقت أو في أغلب الأوقات، وبالعكس وهو أن من سبب بعد ذلك الشيء عن أن يقع ذكره بالخاطر، وتعرض صورته في النفس قلة رؤيته، وأنه مما يُحسُّ بالفيئة بعد الفيئة، وفي الفرط بعد الفرط[3] وعلى طريق الندرة. وذلك أن العيون هي التي تحفظ صورة الأشياء على النفوس، وتجدد عهدها بها، وتحرسها من أن تدثر، وتمنعها أن تزول، ولذلك قالوا: من غاب عن العين فقد

(1) البيت غير تام في الأصل وتمّ إكماله بعد وروده مرة أخرى كاملاً (ص 178).
(2) قوله ونقصت يداً أي قدرت عليه.
(3) الفيئة: الحين والفرط: الحين وأن تأتيه في بعض الأيام ولا يكون أكثر من 15 ولا أقل من 3 (ش).

غاب عن القلب. وعلى المعنى كانت المدارسة والمناظرة في العلوم، وكرورها على الأسماع سبب سلامتها من النسيان، والمانع لها من التفلت والذهاب.

وإذا كان هذا أمراً لا يشك فيه، بان منه أن كل شبه رجع إلى وصف أو صورة أو هيئة من شأنها أن ترى وتبصر أبداً؛ فالتشبيه المعقود عليه نازل مبتذل، وما كان بالضد من هذا وفي الغاية القصوى من مخالفته، فالتشبيه المردود إليه غريب نادر بديع، ثم تتفاضل التشبيهات التي تجيء واسطة لهذين الطرفين بحسب حالها منهما، فما كان منها إلى الطرف الأول أقرب، فهو أدنى وأنزل، وما كان إلى الطرف الثاني أذهب، فهو أعلى وأفضل وبوصف الغريب أجدر.

واعلم أن قولنا «التفصيل» عبارة جامعة، ومحصولها على الجملة أن معك وصفين أو أوصافاً. فأنت تنظر فيها واحداً واحداً، وتفصل بالتأمل بعضها من بعض، وقد أرتك في الجملة حاجة إلى أن تنظر في أكثر من شيء واحد، وأن تنظر في الشيء الواحد إلى أكثر من جهة واحدة. ثم إنه يقع على أوجه (أحدها) وهو الأول والأحق بهذه العبارة: أن تفصل بأن تأخذ بعضاً وتدع بعضاً، كما فعل في اللهب حين عزل الدخان عن السنا وجرده، وكما فعل الآخر حين فصل الحدق عن الجفون وأثبتها مفردة فيما شبه وذلك قوله:

* لها حدق لم تتصل بجفون *

ويقع في هذا الوجه من التفصيل لطائف فمنها قول ابن المعتز:

يطارح النظرة في كل أفق ذي منسر أقنى إذا شك خرق
ومقلة تصدقه إذا رمق كأنها نرجسة بلا ورق[1]

(1) ما أورده مختزل غير مرتب والأصل في الخروج بالبازي سحراً إلى الصيد وهو:

غدوت في ثوب من الليل خلق بطارح النظرة في كل أفق
ذي منسر أقنى إذا شك خرق مختضب في كل يوم يعلق
وكل عظم مفصل إذا علق ومقلة تصدقه إذا رمق
كأنها نرجسة بلا ورق تنشب في الديباج حتى ينفتق

وقوله:

تكتب فيه أيدي المزاج لنا ميمات سطر بغير تعريق[1]

(والثاني) أن تفصل بأن تنظر من المشبه في أموره لتعتبرها كلها وتطلبها فيما يشبه به، وذلك كاعتبارك في تشبيه الثريا بالعنقود الأنجم نفسها، والشكل منها واللون، وكونها مجتمعة على مقدار في القرب والبعد فقد نظرت في الأمور واحداً واحداً، وجعلتها بتأملك فصلاً فصلاً، ثم جمعتها في تشبيهك وطلبك للهيئة الحاصلة، من عدة أشخاص الأنجم والأصناف التي ذكرت لك من الشكل واللون والتقارب على وجه مخصوص هيئة أخرى شبيهة بها؛ فأصبتها في العنقود المنوّر من الملاحية، ولم يقع لك التشبيه بينهما إلا بأن فصلت أيضاً أجزاء العنقود بالنظر وعلمت أنها خصل بيض[2] وأن فيها شكل استدارة النجم، ثم الشكل إلى الصغر ما هو، كما أن شكل أنجم الثريا كذلك، وأن هذه الخصل لا مجتمعة اجتماع النظام والتلاصق، ولا هي شديدة الافتراق، بل لها مقادير في التقارب والتباعد على نسبة قريبة مما تجده في رأي العين بين تلك الأنجم بذلك، على أن التشبيه موضوع على مجموع هذه الأوصاف حتى أنا لو فرضنا في تلك الكواكب أن تفترق وتتباعد تباعداً أكثر مما هي عليه الآن أو قدّر في العنقود أن ينثر لم يكن التشبيه بحاله.

[العبرة والتفصيل في ضروب التشبيه والتمثيل]

وكذلك الحكم في تشبيه الثريا باللجام المفضض لأنك راعيت الهيئة الخاصة من وقوع تلك القطع والأطراف بين اتصال وانفصال، وعلى الشكل الذي

(1) الكلام في القدح وفي رواية: «يكتب فيه كف المزاج» والتعريق: من عرق الشراب كأعرقه إذا جعل فيه عرقاً من الماء بمعنى أنه مزجه ولم يبالغ فيه، وعرق في الإناء: جعله دون الملء، وفي الدلو استقى فيها دون الملء. وقبل البيت:

لا شيء يسلي همي سوى قدح تدمى عليه أوداج إبريق

(2) الخصل جمع خصلة وهي بالفتح والضم العنقود، والعامة تطلقها على الجزء يقتطع من العنقود وعلى العنقود الصغير كالجزء.

يوجبه موضوع اللجام، ولو فرضت أن تركب مثلاً على سنن واحد طولاً في سير واحد مثلاً، ويلصق بعضها ببعض بطل التشبيه وكذا قوله:

* تعرُّض أثناء الوشاح المفصل *[1]

وقد اعتبر فيه هيئة التفصيل في الوشاح والشكل الذي يكون عليه الخرز المنظوم في الوشاح فصار اعتبار التفصيل أعجب تفصيل في التشبيه.

(والوجه الثالث) أن تفصل بأن تنظر إلى خاصة بعض الجنس كالتي تجدها في صوت البازي وعين الديك؛ فأنت تأبى أن تمر على جملة أن هذا صوت وذاك حمرة، ولكن تفصل فتقول فيهما ما ليس في كل صوت وكل حمرة.

وأعلم أن هذه القسمة في التفصيل موضوعة على الأغلب الأعرف، وإلا فدقائقه لا تكاد تضبط. فمما يكثر فيه التفصيل ويقوى معناه فيه ما كان من التشبيه مركباً بين شيئين أو أكثر وهو ينقسم قسمين:

(أحدهما) أن يكون شيئاً بقدر المشبه وبصفته أو لا يكون، ومثال ذلك تشبيه النرجس بمداهن در حشوهن عقيق، وتشبيه الشقيق بأعلام ياقوت نشرت على رماح من زبرجد. لأنك في هذا النحو تحصل الشبه بين شيئين يقدَّر اجتماعهما على وجه مخصوص وبشرط معلوم فقد حصله في النرجس من شكل المداهن والعقيق بشرط أن تكون المداهن من الدر وأن يكون العقيق في الحشو منها، وكذلك اشترط هيئة الأعلام وأن تكون من الياقوت وأن تكون منشورة على رماح من زبرجد. فبك حاجة في ذلك إلى مجموع أمور لو أخللت بواحد منها لم

---

(1) عجز لامرىء القيس وصدره:

إذا ما الثريا في السماء تعرضت

وقبله:

تجاوزت أحراساً وأهوال معشر علي حراصاً لو يسرون مقتلي

قال أبو عمرو: الثريا لا تتعرض وإنما عني الجوزاء. وقال ابن سلام: الثريا تتعرض عند السقوط كما أن الوشاح إذا طرح تلقاك بناحية. وأثناء الوشاح: جوانبه والفصل: الذي فصل ما بين كل خرزتين منه بلؤلؤة.

يحصل الشبه وكذلك لو خالفت الوجه المخصوص في الاجتماع والاتصال بطل الغرض فكما بك حاجة إلى أن يكون الشكل شكل المُدْهُن وأن يكون من الدر وأن يكون معه العقيق فبك أيضاً فقر إلى أن يكون العقيق في حشو المداهن ـ وعلى هذا القياس.

و(القسم الثاني) أن تعتبر في التشبيه هيئة تحصل من اقتران شيئين وذلك الاقتران مما يوجد ويكون. ومثاله قوله:

غدا والصبح تحت الليل باد كطِرْفٍ أشهب مُلقى الجلال

قصدَ الشبه الحاصل لك إذا نظرت إلى الصبح والليل جميعاً وتأملت حالهما معاً، وأراد أن يأتي بنظير للهيئة المشاهدة من مقارنة أحدهما الآخر؛ ولم يرد أن يشبه الصبح على الانفراد والليل على الانفراد، كما لم يقصد الأول أن يشبه الدائرة البيضاء من النرجس بمدهن الدر ثم يستأنف تشبيهاً للثانية بالعقيق، بل أراد أن يشبه الهيئة الحاصلة من مجموع الشكلين، من غير أن يكون بَيْن في البين، ثم إن هذا الاقتران الذي وضع عليه التشبيه مما يوجد ويعهد، إذ ليس وجود الفرس الأشهب قد ألقى الجل من المعوز[1] فيقال إنه مقصور على التقدير والوهم.

فأما الأول فلا يتعدى التوهم وتقدير أن يصنع ويعمل فليس في العادة أن تتخذ صورة أعلاها ياقوت على مقدار العلم وتحت ذلك الياقوت قطع مطاولة من الزبرجد كهيئة الأرماح والقامات، وكذلك لا يكون ههنا مداهن تصنع من الدر ثم يوضع في أجوافها عقيق. وفي تشبيه الشقيق زيادة معنى تباعد[2] الصورة من الوجود وهو شرطه أن تكون أعلاماً منشورة والنشر في الياقوت وهو حجر لا يتصور موجوداً.

وبقي أن تعلم أن الوجه في إلقاء الجل أن تريد أنه أداره عن ظهره وأزاله

(1) الجل للفرس والحمار بالضم وبالفتح: ما يوضع على الظهر ليركب عليه جمعه جلال بالكسر وأجلال، والعوز اسم فاعل من أعوزه الشيء إذا احتاج إليه فلم يجده أو لم يقدر عليه.

(2) فعل مضارع فاعلة ضمير يعود إلى الزيادة.

عن مكانه حتى تكشف أكثر جسده، لا أنه رمى به جملة حتى انفصل منه لأنه إذا أراد ذلك كان قد قصد إلى تشبيه الصبح وحده من غير أن يفكر في الليل، ولم يشاكل قوله في أول البيت «والصبح تحت الليل باد».

وأما قوله:

إذا تبدى البرق منها خلته بطن شجاع في كثيب يضطرب
وتارة تبصره كأنه أبلق مال جله حين وثب

فلا شَبَه فيه أن يكون القصد إلى تشبيه البرق وحده ببياض البلَق دون أن يدخل لون الجل في التشبيه حتى كأنه يريد أن يريك بياض البرق في سواد الغمام، بل ينبغي أن يكون الغرض بذكر الجل أن البرق يلمع بغتة ويلوح للعين فجأة فصار لذلك كبياض الأبلق إذا ظهر عند وثوبه وميل جله عنه. وقد قال ابن بابك في هذا المعنى:

للبرق فيها[1] لهبٌ طائش كما يعرى الفرس الأبلق

إلا أن لقول ابن المعتز «حين وثب» من الفائدة ما لا يخفى. وقد عُنيَ المتقدمون أيضاً بمثل هذا الاحتياط ألا تراه قال:

وترى البرق عارضاً[2] مستطيلا مَرَح البُلْق جُلن في الإجلال

فجعلها تمرح وتجول ليكون قد راعى ما به يتم الشبه وهو معظم الغرض من تشبيهه وهو هيئة حركته وكيفية لمعه.

ثم اعلم أن هذا القسم الثاني الذي يدخل في الوجود يتفاوت حاله، فمنه ما يتسع وجوده ومنه ما يوجد في النادر ويبين ذلك بالمقابلة، فأنت إذا قابلت قوله:

وكأن أجرام النجوم لوامعاً درر نثرن على بساط أزرق

(1) الضمير في «فيها» للسحابة.
(2) من عرض إذا ظهر وبدا ولم يدم. كتب الثلاثة شيخنا في نسخة الدرس.

بقول ذي الرمة: «كأنها فضة قد مسها ذهب»[1] علمت فضل الثاني على الأول في سعة الوجود وتقدم الأول على الثاني في غربته وقلته وكونه نادر الوجود فإن الناس يرون أبداً في الصياغات فضة قد أجرى فيها ذهب، وطليت به ولا يكاد يتفق أن يوجد در قد نثر على بساط أزرق.

فإذا عرفت انقسام المركب من التشبيه إلى هذين القسمين فاعتبر موضعهما من العبرتين[2] المذكورتين فإنك تراهما بحسب نسبتهما منهما وتحققهما بهما قد أعطتاهما لطف الغرابة، ونفضتا عليهما صِبْغَ الحسن، وكستاهما روع الإعجاب، فتجد المقدر الذي لا يباشر الوجود نحو قوله:

أعلامُ ياقوت نشرْ نَ على رماح من زبرجد

وكقوله في النيلوفر:

كلنا باسط اليد نحو نِيلوفر نَدِى
كدبابيس عسجد قُضْبها من زبرجد

قد اجتمع فيه العبرتان جميعاً. وتجد العبرة الثانية[3] قد أتت فيه على غاية القوة لأنه لا مزيد في بعد الشيء عن العيون على أن يكون وجوده ممتنعاً أصلاً حتى لا يتصور إلا في الوهم. وإذا تركت هذا القسم ونظرت إلى القسم الثاني الذي يدخل في الوجود نحو قوله:

* درر نثرن على بساط أزرق *

---

(1) أول البيت:

* كحلاء في برج صفراء في نعج *

والبرج بالتحريك أن يكون بياض العين محدقاً بالسواد كله لا يغيب عن سوادها شيء، والنعج: البياض الخالص يريد أنه يشوب صفرتها بياض خالص وهو محمود عندهم.

(2) هما العبرتان في سبب الغرابة وهما التفصيل وبعد الشيء عن العيون وغيبته عن الحس (ش).

(3) هي عبرة البعد عن النظر وقلة التردد عليه.

وجدت العبرة الثانية لا تقوى فيه تلك القوة لأنه إذا كان مما يعلم أنه يوجد ويعهد بحال وإن كان لا يتسع بل يندر ويقل، فقد دنا من الوقوع في الفكر، والتعرض للذكر، دنواً لا يدنوه الأول الذي لا يطمع أن يدخل تحت الرؤية للزومه العدم، وامتناعه أن يجوز عليه إلا التوهم، ولا جرم لما كان الأمر كذلك كان للضرب الأول من الروعة والحسن، ولصاحبه من الفضل في قوة الذهن، ما لم يكن ذلك في الثاني. وقوى الحكم[1] بحسب قوة العلة، وكثر الوصف الذي هوالغرابة بحسب الجالب له.

وفي هذا التقرير ما تعلم به الطريق إلى التشبيه من أين تفاوت في كونه غريباً، ولم تفاضل في مجيئه عجيباً، وبأي سبب وجدت عند شيء منه من الهزة ما لم تجده عند غيره، علماً يخرجك عن نقيصة التقليد، ويرفعك عن طبقة المقتصر على الإشارة، دون البيان والإفصاح بالعبارة.

واعلم أن العبرة الثانية التي هي مرور الشيء على العيون هو[2] معنى واحد لا يتكثر ولكنه يقوى ويضعف كما مضى. وأما العبرة الأولى وهي التفصيل فإنها في حكم الشيء يتكثر وينضم فيه الشيء إلى الشيء. ألا ترى أن أحد التفصيلين يفضل الآخر بأن تكون قد نظرت في أحدهما إلى ثلاثة أشياء أو ثلاث جهات وفي الآخر إلى شيئين أو جهتين والمثال في ذلك قول الشاعر:

كأن مُثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافَنا ليلٌ تَهاوَى كواكبه

مع قول المتنبي:

يزور الأعادي في سماء عجاجة أسنتُه في جانبيها الكواكب

أو قول عمرو بن كلثوم:

تبنى سنابكها من فوق أُرؤسهم سقفاً كواكبه البيض المباتير

(1) هو الحكم بالغرابة (ش).

(2) ذكر الضمير مع أنه عائد إلى العبرة ومراعاة للخبر وهو مذكر مع الفاصل بينه وبين مرجعه.

التفصيل في الأبيات الثلاثة كأنه شيء واحد لأن كل واحد منهم يشبِّه لمعان السيوف في الغبار بالكواكب في الليل، إلا أنك تجد لبيت بشار من الفضل ومن كرم الموقع ولطف التأثير في النفس ما لا يقل مقداره، ولا يمكن إنكاره، وذلك لأنه راعى ما لم يراعه غيره وهو أن جعل الكواكب تهاوى فأتم الشبه، وعبر عن هيئة السيوف وقد سلت من الأغماد وهي تعلو وترسب، وتجيء وتذهب، ولم يقتصر على أن يريك لمعانها في أثناء العجاجة كما فعل الآخران. وكان لهذه الزيادة التي زادها حظ من الدقة تجعلها في حكم تفصيل بعد تفصيل. وذلك أنا وإن قلنا إن هذه الزيادة ـ وهي إفادة هيئة السيوف في حركاتها ـ إنما أتت في جملة لا تفصيل فيها فإن حقيقة تلك الهيئة لا تقوم في النفس إلا بالنظر إلى أكثر من جهة واحدة، وذلك أن تعلم أن لها في حال احتدام الحرب، واختلاف الأيدي بها في الضرب، اضطراباً شديداً، وحركات بسرعة، ثم إن لتلك الحركات جهات مختلفة، وأحوالاً تنقسم بين الاعوجاج والاستقامة، والارتفاع والانخفاض، وإن السيوف باختلاف هذه الأمور تتلاقى وتتداخل ويقع بعضها في بعض، ويصدم بعضها بعضاً، ثم إن أشكال السيوف مستطيلة، فقد نظم هذه الدقائق كلها في نفسه ثم أحضرك صورها بلفظة واحدة ونبّه عليها بأحسن التنبيه وأكمله بكلمة وهي قوله: (تهاوى) لأن الكواكب إذا تهاوت اختلفت جهات حركاتها وكان لها في تهاويها تواقع وتداخل، ثم إنها بالتهاوي تستطيل أشكالها، فأما إذا لم تزل عن أماكنها فهي على صورة الاستدارة.

ويشبه هذا الموضع في زيادة أحد التشبيهين مع أن جنسهما جنس واحد وتركيبهما على حقيقة واحدة بأن في أحدهما فضل استقصاء ليس في الآخر قول ابن المعتز:

وطاف بها ساق أديب بِمبزَل   كخنجر عيّار صناعته الفتك
وحمل آذر يونة فوق أذنه   ككأس عقيق في قرارتها مسك[1]

(1) قبل البيتين:

وقد حفيت من صفوها فكأنها   بقايا يقين كاد يدركه الشك

مع قوله:

مـــداهـــن مـــن ذهـــب فـيـهـا بـقـايـا غـالـيـة[1]

الأول ينقص عن الثاني شيئاً، وذلك أن السواد الذي في باطن الآذريونة الموضوع بإزاء الغالية والمسك[2]، فيه أمران. أحدهما: أنه ليس بشامل لها. والثاني: أن هذا السواد ليس صورته صورة الدرهم في قعرها، أعني أنه لم يستدر هناك بل ارتفع من قعر الدائرة حتى أخذ شيئاً من سمكها[3] من كل الجهات، وله في منقطعه هيئة تشبه آثار الغالية في جوانب المدهن إذا كانت بقية بقيت عن الأصابع. وقوله: «في قرارتها مسك» يبين الأمر الأول[4]، ويؤمن من دخول النقص عليه، كما كان يدخل لو قال: «ككأس عقيق فيها مسك». ولم يشترط أن يكون في القرارة.

والكلام في الخمر، والمبزل كمنبر: ما يصفي به الشراب وهو شبه طبي (الطبي حلمة الضرع وهو بكسر الطاء وبضمها) في الدن ونحوه يتبزل منه الشراب أي يسيل، والعيار بتشديد الياء في أصل اللغة: الذي يكثر الذهاب والمجيء والتطواف بغير عمل، وغلب على المتعرض للناس للسلب والفتك، والآذريونة يأتي تفسيرها بعد.

(1) قبل البيت:

سـقـيـاً لـروضـات لـنـا مـنـكـل نـور حـالـيـه
عـيـون آذريـونـهـا لـلـشـمـس فـيـهـا كـالـيـه

وأصل كالية الهمز من كلاه أي حفظه ومعنى كلاءة عيون الآذريون للشمس أنها تستقبلها وتدور معها حيث دارت. والآذريون جمع آذريونة كتمر وتمرة: وهي ورد له أوراق حمر في وسطه سواد له نبو وارتفاع وقد يكون أصفر واقتصر عليه صاحب القاموس. ولاختلاف لونيه يشبه بكأس من عقيق فيها مسك كما قال «ككأس عقيق» البيت. وبمدهن من ذهب فيه شيء من الغالية وهي أخلاط من الطيب.

(2) أي المقصود بكل منهما.

(3) السمك بالفتح: القامة من كل شيء طويل ثخين وهو من أعلى البيت إلى أسفله. ويطلق على السقف وحده ولا يصح هنا كما قاله شيخنا.

(4) هو كونه ليس بشامل.

[التفصيل لدقائق التشبيه المركب]

وأما الثاني من الأمرين، فلا يدل عليه كما يدل قوله: «بقايا غالية». وذاك من شأن المسك والشيء اليابس، إذا حصل في شيء مستدير في القعر لا يرتفع في الجواب الارتفاع الذي تراه في سواد الآذريونة. وأما الغالية فهي رطبة ثم هي تؤخذ بالأصابع، وإذا كان كذلك فلا بد في البقية منها من أن تكون قد ارتفعت عن القرارة وحصلت بقية شبيهة بذلك السواد، ثم هي لنعومتها ترق فتكون كالصبغ الذي لا جرم له يملك المكان، وذلك أصدق للتشبيه ومن أبلغ الاستقصاء وعجيبة قول ابن المعتز:

كأنا وضوء الصبح يستعجل الدجى نطير غراباً ذا قوادم جُون

شبه ظلام الليل حين يظهر فيه الصبح بأشخاص الغربان، ثم شرط أن تكون قوادم ريشها بيضاً، لأن تلك الفرق من الظلمة تقع في حواشيها من حيث يلي معظم الصبح وعموده لمع[1] نور يتخيل منها في العين كشكل قوادم[2] إذا كانت بيضاء. وتمام التدقيق والسحر في هذا التشبيه في شيء آخر وهو أن جعل ضوء الصبح لقوة ظهوره، ودفعه لظلام الليل، كأنه يحفز الدجى ويستعجلها، ولا يرضى منها بأن تتمهل في حركتها. ثم لما بدأ بذلك أولاً اعتبره في التشبيه آخراً فقال «نطير غراباً» ولم يقل غراب يطير مثلاً، وذلك أن الغراب وكل طائر إذا كان واقعاً هادئاً في مكان فأزعج وأخيف وأطير منه، أو كان قد حبس في يد أو قفص فأرسل كان ذلك لا محالة أسرع لطيرانه وأعجل وأمدّ له وأبعد لأمده، فإن تلك الفزعة التي تعرض له من تنفيره أو الفرحة التي تدركه وتحدث فيه من خلاصه وانفلاته مما دعته إلى أن يستمر حتى يغيب عن الأفق ويصير إلى حيث لا تراه

---

(1) لمع جمع لمعة بالضم بمعنى البريق ـ وهي فاعل تلى معظم الصبح وقوله يتخيل منها الخ معناه: يتشبه ويتراءى منها في العين مثل شكل القوادم.

(2) قوادم الطير: مقاديم ريشه وهي عشرة في كل جناح الواحدة قادمة، والجون بالضم جمع جون بالفتح وهو الأبيض والأسود (ضد) والمراد هنا البيض. شبه الليل الذي فيه تباشير الصبح بغراب له قوادم بيض.

العيون، وليس كذلك إذا طار عن اختيار لأنه يجوز حينئذ أن يصير إلى مكان قريب من مكانه الأول وأن لا يسرع في طيرانه بل يمشي على هيْنة ويتحرك حركة غير المستعجل فاعرفه.

ومما حقه أن يكون على فرط الاستقصاء في التشبيه وفضل العناية بتأكيد ما بدا به قول ابن فارس في صفة البازي[1]:

كأن عينيه إذا ما أثأرا فَصَّان قيضًا من عقيق أحمرا
في هامة غلباء تهدى منسراً كعطفة الجيم بكف اعسرا[2]

[التشبيه في الهيئة التي تقع عليها الحركات]

أراد أن يشبه المنقار بالجيم، والجيم خطان الأول الذي مبدأه وهو الأعلى والثاني وهو الذي يذهب إلى اليسار وإذا لم توصل فلها تعريق[3] كما لا يخفى، والمنقار إنما يشبه الخط الأعلى فقط فلما كان كذلك قال: «كعطفة الجيم» ولم يقل: كالجيم ثم دقق بأن جعلها بكف أعسر لأن جيم الأعسر قالوا أشبه بالمنقار من جيم الأيمن. ثم إنه أراد أن يؤكد أن الشبه مقصور على الخط الأعلى من شكل الجيم فقال:

يقول من فيها بعقل فكراً لو زادها عيناً إلى فاء ورا
فاتصلت بالجيم صارت جعفرا

فأراك عياناً أنه عمد في التشبيه إلى الخط الأول من الجيم دون تعريقها ودون الخط الأسفل. أما أمر التعريق وإخراجه من التشبيه فواضح لأن الوصل يسقط التعريق أصلاً. وأما الخط الثاني فهو وإن كان لا بد منه مع الوصل فإنه إذا

---

(1) الأبيات لأبي نواس كما ذكره أبو هلال العسكري وغيره.
(2) أثأر: أدرك ثأره. وقيضا: شقا. وغلباء: قوية. والمنسر كمجلس ومنبر: منقار الطير الجارح.
(3) تعريق الجيم أن يعطف بالخط الأسفل إلى اليمين على هيئة قوس هكذا، كما هو الشأن دائماً في الجيم المفردة، وعطفته وهي الخط الأعلى التي تشبه المنسر فهكذا ج.

قال: «لو زادها عيناً إلى فاء ورا» ثم قال: «فاتصلت بالجيم» فقد بين أن هذا الخط الثاني خارج أيضاً من قصده في التشبيه من حيث كانت زيادة هذه الحروف ووصلها هي السبب في حدوثه. وينبغي أن يكون قوله «بالجيم» يعني بالعطفة المذكورة من الجيم ولأجل هذه الدقة قال: «يقول من فيها بعقل فكراً» فمهد لما أراد أن يقول ونبه على أن بالمشبه حاجة إلى فضل فكر وأن يكون فكره فكرة من يراجع عقله ويستعينه على تمام البيان.

وجملة القول أنك متى زدت في التشبيه على مراعاة وصف واحد أو جهة واحدة فقد دخلت في التفصيل والتركيب وفتحت باب التفاصيل ثم تختلف المنازل في الفضل بحسب الصورة في استنفادك قوة الاستقصاء أو رضاك بالعفو دون الجهد.

obeikandl.com